الدكتور يوحنا ورتبات

لمن من العلماء الفضل الاكبر في النهضة العلمية التي ابتدأت في بلاد الشام منذ خمسين سنة فعمتها ونمّت القطر المصري معها؟ هذه مسألة يتعذّر بتّ الحكم فيها ولكن لا خلاف في ان الدكتور ورتبات صاحب الترجمة من اركان هذه النهضة الذين لهم اليد الطولى فيها

رأيناهُ اول مرة منذ نحو اربعين سنة جاء زائرًا مدرسة عبيه في لبنان وكان الشيب قد وخطهُ . ووقف في منبر الوعظ نوعظ بالعربية ونحن نظنهُ انكليزيًّا ثم وعظ بالانكليزية في ذلك اليوم عينهِ بعد ان علمنا انهُ شرقي وسمعنا اساتذتنا حينئذٍ يعجبون ببلاغتهِ وحسن اسلوبهِ في الوعظ والانذار ويقولون انهُ من نوابغ رجال المشرق الذين تلقوا العلوم على المرسلين الاميركيين

وبعد سنتين صرنا من تلامذتهِ في المدرسة الكلية الاميركية تتعلّم منهُ مبادئ علم الفسيولوجيا فرأينا منهُ عالمًا عاملاً يقرن العلم بالعمل والقول بالامتحان يرينا كريّات الدم وتلافيف الدماغ وصمامات القلب وفصوص الكبد وحبيبات الطحال واقسام الامعاء ويغرينا بتشريح الحيوانات ودرس وظائف اعضائها. ومضت السنون وهو مثال لنا في الهمة والاجتهاد والدعة وكرم الاخلاق . مرشد حكيم نتّبع قدوتهُ وصديق مخلص تفيد مودتهُ وهذا رأي تلامذتهِ كلهم الذين تعلّموا منهُ كما هو رأي معارفهِ الذين عاشروهُ وعاملوهُ

وهو ارمني الاصل كما تدلُّ كنيتهُ وُلد في بداءة سنة ١٨٢٧ فبعد بضعة اشهر يدخل في السنة الثمانين من عمرهِ . وشرع وهو في الخامسة يتعلّم مبادئ القراءة . ولما انشئت المدرسة الاميركية الاولى في بيروت سنة ١٨٣٦ انتظم في عداد تلامذتها وبقي فيها ست سنوات وكان التعليم فيها باللغة الانكليزية فاتقن هذه اللغة حتى لا يفرق عن فصحاء اهلها لفظًا وانشاء. وبعد خروجهِ منها قرأ النحو والبيان على الشيخ ناصيف اليازجي من علماء الشام والعروض والمنطق على الشيخ عقل الزويتيني من علماء حلب ولازم افاضل المرسلين الاميركيين ثماني سنوات وقرأ عليهم العبرانية واللاتينية واليونانية والعلوم اللاهوتية. وعلى ثلاثة من اطبائهم اكثر فروع الطب ثم اكمل دروسهُ الطبية في ادنبرج ونيويورك ونال الشهادة الطبية بعد الامتحان

ولما فُتح الفرع الطبي من المدرسة الكلية في بيروت سنة ١٨٦٧ جُعل فيهِ استاذًا للتشريح والفسيولوجيا على ما تقدم فدرّس هذين العلمين ست عشرة سنة متوالية والّف فيهما كتابين جليلين بالعربية لا يزالان اوسع واوثق ما وضع في هذين العلمين بها حتى الآن. ثم

انتُدب لتدريس الطب الباطني بعد استعفاء الدكتور ڤان ديك فدرَّسهُ اربع سنوات . وكان طبيبًا للمستشفى البروسياني في بيروت المعروف بمستشفى فرسان مار يوحنا فاهدى اليهِ اصحابهُ وسام الاستحقاق الذهبي وساعة ثمينة نقشوا عليها اسمهُ وذكروا خدمتهُ في ذلك المستشفى خمس عشرة سنة . ومنحتهُ الدولة العثمانية الوسام المجيدي الرابع اعترافًا بخدمتهِ مدة الكوليرا سنة ١٨٧٥ والعثماني الرابع جزاء ما ألَّفهُ ونشرهُ من الكتب العلمية فقابل الوسامين بالشكر لانهُ ينظر الى الدلالة المقصودة منهما

ويمتاز في تأليفهِ وتدريسهِ وتطبيبهِ ومعاشرتهِ ولهُ في كل امر من ذلك خطَّة معلومة ترى باقل نظر . ففي التأليف يتوخى الفائدة والسهولة كما يبين من الكتب التي ألَّفها او ترجمها ومن المقالات التي كتبها بالعربية او بالانكليزية

ولهُ من الكتب العلمية كتاب التشريح . وكتاب الفسيولوجيا . وكتاب صغير في التشريح والفسيولوجيا مع اطلس كبير . وكتاب في حفظ الصحة . واكثر من ثلاثين مقالة اكثرها باللغة الانكليزية بعضها في المواضيع الطبية كالجذام والطاعون والكوليرا والحمى التيفويدية والتريخينا ونحوها . وبعضها في مواضيع ادبية كوصايا الشيوخ للشبان والتربية المدرسية والمصريين القدماء ونحو ذلك من المقالات التي تراها منشورة في المقتطف . وترجم كثيرًا من الكتب الدينية والتفاسير واسلوبهُ في الكتابة خالٍ من التعقيد ومقصور على ايراد المعنى المراد من غير التفات الى تنميق الالفاظ والتراكيب . وقد عرف الاوربيون والاميركيون قدرهُ العلمي لما رأوهُ من تآليفهِ فانتخب عضوًا في المجمع الطبي الجراحي في ادنبرح ومجمع لندن في علم الامراض الوافدة والاكادمية الطبية في نيويورك . ومنحتهُ مدرسة ييل الجامعة الدكتورية الاكرامية

واسلوبهُ في التدريس مثل اسلوبهِ في التأليف فلا يترك امرًا جوهريًّا الَّا بعد ان يفهمهُ تلامذتهُ حق الفهم نظرًا وعملاً . والتشريح من اصعب العلوم في تدقيقاتهِ وكثرة ما يجب حفظهُ منهُ ومع ذلك كان تلامذتهُ لا يتركون شيئًا منهُ جوهريًّا الَّا ويستظهرونهُ اقتداء بهِ . والفسيولوجيا من العلوم الدقيقة النامية فكان يصل في تدريسها الى آخر حدٍّ وصلت اليهِ حينئذٍ في ايدي علماء اوربا ويرسّخ قواعد العلمين في ذهن التلميذ بالتشريح العملي والبحث الفسيولوجي . وهو مثال في المواظبة والمحافظة على الوقت فلا يضيع دقيقة من اوقات التدريس بل يضيف اليها كل ما يلزم لقرن العلم بالعمل وجعلهِ بحيث يرى التلميذ فيهِ لذةً ولو لم يكن مما يُرغب فيهِ عادة كعلم التشريح

ومدار اسلوبهِ في التطبيب الاعتماد على الوقاية والتدابير الصحية ومساعدة الطبيعة للتغلب على المرض والاقلال من العلاجات الدوائية على قدر الامكان وبث الثقة في نفس المريض

يخفف الامر عليه. وهذا الاسلوب قد لا يفيد الطبيب مالاً ولكن المال ليس الغرض الذي يرمي اليه وهو من ازهد الناس في الدنيا.

روى لنا ثقة منذ نحو خمس وعشرين سنة حادثة يصح نشرها في هذا المقام. قال "مرضت زوجتي فاستدعيتُ لها طبيباً ليعالجها ويعودها كل يوم وانا ادفع اليه اجرة العيادة حسب العادة. وذات يوم ابنت لهُ اني افضّل ان لا يعودها كل يوم فلحظ اني استثقلت دفع اجرة العيادة فوقف وسألني عن عملي وراتبي فاخبرتهُ فمضى ثم عاد ومعهُ كل الدراهم التي اخذها مني فردها اليَّ واضطرَّني الى اخذها وواظب على عيادة زوجتي من غير اجرة". هذا ما وعتهُ الذاكرة من هذه القصة وقد تكون مخطئين في بعض تفاصيلها لبعد المدة ولكن مجملها كذلك. ولا يبعد ان يكون لها امثال كثيرة. وليس الغرض من ذكرها التنويه بفضله واحسانهِ بل الاشارة الى انهُ يعدُّ الكسب من صناعة الطب امرًا ثانويًا

الى هنا كان النظر اليهِ من حيث كونهُ رجل علم منقطعاً لافادة ابناء نوعهِ والآن ننظر اليهِ من حيث مقامهُ بين معاشريهِ

اذا نظر اليهِ المرء ولو مرةً واحدةً لا ينسى ما يراهُ في وجههِ من امارات الهيبة والوقار وقد يظنهُ لاول وهلة عبوساً غير انيس للحضر ولكنهُ اذا عاشرهُ ولو قليلاً رآهُ على جلالة قدره من اكثر الناس بشاشة وافكههم حديثاً. ويغلب الوقار عليهِ في مقام التعليم والارشاد كما اذا وقف واعظاً او خطيباً. والمواضيع التي يبني كلامهُ عليها حينئذٍ مدارها في الغالب الحث على الفضائل واقامة الادلة العلمية والتاريخية على فائدتها فكم من مرة اتخذ موضوعاً لعظاتهِ قول الكتاب ان التقوى لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة وما يماثل ذلك من الآيات الكتابيَّة. وخطبتهُ المعنونة وصايا الشيوخ للشبان اوضح مثال لذلك وهي منشورة في المجلد التاسع عشر من المقتطف. ولكن الحياة ليست كلها تعليماً وتدريباً بل جانب كبير منها معاشرة ومعاملة فاذا رأيتهُ في حديقة بيتهِ يعتني بازهارها ورياحينها او رأيتهُ يلعب الالعاب الرياضية فيها مع الشبان والصبايا او رأيتهُ مع عشرائهِ يطربهم بفكاهة حديثهِ ويقص عليهم النوادر الغريبة او رأيتهُ يضحك لنكتة كما رأيناهُ مرةً اغرب في الضحك لكلمة قالها احد التلامذة فجاءت توريةً مضحكة — مَن رآهُ كذلك قال ان الوقار والبشاشة اجتمعا فيهِ احسن اجتماع من غير افراط ولا تفريط

وهو الآن في التاسعة والسبعين وقد ناهز الثمانين ولا يزال ممتعاً بصحة العقل والجسد. حياة كلها نفع لا شائبة فيها وعمر قضي في رفع شأن الفضيلة والتدريب على ما يزيد الراحة ويزيل الالم. فسح الله في اجلهِ وزاد نفعنا بهِ